﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَشْبِيهُ المُعْرِضِينَ عَنِ الهُدى، والمُتَّبِعِينَ لِسابِقِيهِمْ عَنْ عَمايَةٍ، بِأبْشَعِ تَشْبِيهٍ

"لَمَّا ذَكَرَ تعالى أَنَّ هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ إذا أُمِرُوا بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّه، أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ ورَجَعُوا إلى مَا أَلِفُوهُ مِن اتّباع الباطِلِ الّذي نَشَؤوا عَلَيْهِ ووَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، ولَمْ يَتَدَبَّرُوا مَا يُقَالُ لَهُمْ، وصَمُّوا عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ، وخَرِسُوا عَنِ النُّطْقِ بِهِ، وعَمُوا عَنْ إبْصَارِ النُّورِ السَّاطِعِ النَّبَوِيِّ، ذَكَرَ هَذا التَّشْبِيهَ العَجِيبَ في هَذِهِ الآيَةِ، مُنَبِّهًا على حَالَةِ الكَافِرِ في تَقْلِيدِهِ أَبَاهُ، ومُحَقِّرًا نَفْسَهُ، إذْ صَارَ هُوَ في رُتْبَةِ البَهِيمَةِ، أَوْ في رُتْبَةِ دَاعِيهَا"[1]، "عُقِّبَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِتَمْثِيلٍ فَظِيعِ حَالِهِمْ، إبْلَاغًا في البَيَانِ، واسْتِحْضَارًا لَهُمْ بِالمِثَالِ"[2].

المُعْرِضونَ عمّا أنزَلَ اللهُ (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ)، بِلا عَقْلٍ ولا بَصيرَةٍ

من ناحية أخرى، أنه سبحانه "لَمَّا حَكَى عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ إلى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّه، تَرَكُوا النَّظَرَ والتَّدَبُّرَ، وأَخْلَدُوا إلى التَّقْلِيدِ، وقَالُوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: 170]، ضَرَبَ لَهُمْ هَذا المَثَلَ، تَنْبِيهًا لِلسَّامِعِينَ لَهُمْ، أَنَّهُمْ إنّما وقَعُوا فِيمَا وقَعُوا فِيهِ بِسَبَبِ تَرْكِ الإِصْغَاءِ، وقِلَّةِ الاهْتِمَامِ بِالدِّينِ، فَصَيَّرَهُمْ مِنْ هذا الوَجْهِ بِمَنْزِلَةِ الأَنْعَامِ"[3].

الصّوت موهبةُ اللهِ، فطائرٌ يشدُو، وآخرُ ينعقُ

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَنۡعِقُ﴾: مِنَ الجذر (نعق)، وهُوَ في الأصلِ يدُلُّ على صَوْتٍ، ونَعَقَ الرَّاعِي بِالغَنَمِ يَنْعَقُ ويَنْعِقِ، إذا صَاحَ بِها زَجْرًا، نَعِيقًا[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/111.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعق).

"النَّعِيقُ: دُعَاءُ الرَّاعِي وتَصْوِيتُهُ بِالغَنَمِ"[1]، فالنَّعيقُ صَوْتُ الرّاعي حِينَ يَصيحُ بِغَنَمِهِ زَجْرًا لها.

قَالَ الأخطل:

فَانْعِقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا *** مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَا[2]

وقوله: "﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾، وجْهُ الكلام: كَمثل المَنْعوقِ به، فجاءَ النّاعِقُ في مَوضِعِ المَنعوقِ به، لأنَّهُ جَعَل الكُفّارَ بمَنْزِلَة الغَنَم المَنْعوقِ بها"[3]، "وحَكى ابنُ كيْسانَ: نَعَقَ الغُرابُ بالعَيْن غير مُعْجَمة، قَالَ الزّمخْشَريُّ: والغيْنُ أَعلَى، أَي: صاحَ، وقَالَ الأزهريّ: نعيقُ الغُراب، ونُعاقُه، ونَغيقُه، ونُغاقُه، مثلُ نَهيقِ الحِمارِ ونُهاقِهِ، ولكنّ الثِّقات من الأئمّة يَقُولُونَ: كلامُ العرَبِ: نَعَقَ الغُرابُ، بالغيْنِ المعْجَمَة، ونَعَقَ الرّاعي بالشّاءِ، بِالْعينِ المهْملة، ولَا يُقال في الغُراب نَعَق، ويجوز نعَبَ"[4].

لا يكونُ الدّعاءُ إلّا معه الاسم، بخلاف النّداء

2) ﴿دُعَآءً﴾: أصلُ مادّة (دعو)، هُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلَام[5]، "والدُّعاءُ: واحد الأدْعِيَةِ، وأَصْلُهُ: دُعاوٌ، لأنّه من دَعوتُ، إلّا أنّ الواو لَمَّا جاءت بعد الألف هُمِزَتْ، وتَقولُ للمرأة: أَنْتِ تَدْعِينَ، وفيه لُغَة ثانِيةٌ: أَنْتِ تَدْعُوِينَ، وفيه لُغةٌ ثالثةٌ: أَنْتِ تَدْعُـينَ بإشمام العين الضَّمَّةَ، وللجماعة: أَنْتُنَّ تَدْعُونَ، مثل الرّجالِ سَواءً"[6]، و"الدُّعَاءُ كالنِّداءِ، إلّا أنّ النِّدَاءَ قَدْ يُقَالُ بـ(يَا، أَوْ أَيَا)، ونَحْوِ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُضَمَّ إِلَيْهِ الاسْمُ، والدُّعَاءُ لا يَكَادُ يُقَالُ إلّا إذا كان مَعَهُ الاسْمُ، نَحْو: يَا فُلَانُ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعَ الآخَرِ، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]"[7].

النّـداءُ رفـعُ الـصّـوت المُجرّد، والجهرُ به وإظهاره

3) ﴿وَنِدَآءً﴾: مِن الجذْرِ (ندا/ ندي)، و"النِّدَاءُ: رفْعُ الصَّوتِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.
(2) ديوان جرير، ص: 50، وتح: صالحاني، ص: 116، وتح: قباوة.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/943، وكذلك الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/286.
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: 26/428.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (دعا).
(7) الرّاغب، المفردات: (دعو).

وظُهُورُهُ، وقد يُقال ذلك لِلصَّوْتِ المُجرَّدِ، وإيّاه قَصَدَ بقولِه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، أَيْ: لا يَعْرِفُ إلّا الصَّوْتَ المجَرَّدَ دُونَ المعْنَى الذي يَقْتَضِيه تَرْكِيبُ الكَلَام"[1]، ونَقل الزَّبيديُّ عن الرَّاغب قولَهُ: "النِّداءُ: رَفْعُ الصَّوتِ المجرَّدِ، وإيَّاه قَصَدَ بقولِه تعالى: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾"، "قالَ: واسْتِعارَةُ النِّداءِ للصَّوْت، مِن حيثُ إنَّ مَنْ تَكْثُرُ رُطُوبَة فَمِه حَسُن كَلامُه، ولِهَذَا يُوصَفُ الفَصِيحُ بكَثْرةِ الرِّيقِ"[2]، ونَدَى الصَّوْتِ: بُعْدُ مَذْهَبِه، وهُوَ أَنْدَى صَوْتًا مِنْهُ: أَيْ أَبْعَدُ، قال:

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى *** لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ[3]

4) ﴿صُمٌّ﴾: مِنَ الجَذْر (صمم)، وهُوَ "أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَضَامٍّ الشَّيْءِ، وزَوَالِ الْخَرْقِ، والسَّمِّ، مِنْ ذَلِكَ: الصَّمَمُ في الْأُذُنِ، يُقَالُ: صَمِمْتَ، وأَنْتَ تَصَمُّ صَمَمًا، ورُبَّمَا قَالُوا: صُمَّ، بِمَعْنَى صَمَّ، ويُقَالُ: أَصْمَمْتُ الرَّجُلَ، إِذَا وجَدْتَهُ أَصَمَّ، قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

أَصَمَّ دُعَاءُ عَاذِلَتِي تَحَجَّى *** بِآخِرِنَا وتَنْسَى أَوَّلِينَا[4]

والصَّمَمُ: فُقْدانُ حَاسَّةِ السَّمْعِ، وبِهِ يُوصَف مَنْ لا يُصْغِي إلى الحَقِّ ولَا يَقْبَلُهُ، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[5]، "وأَصْلُ الصَّمَمِ السَّدُّ، ومِنْهُ صَمَمْتُ القَارُورَةَ: إذا شَدَدْتَ رَأْسَهَا"[6].

الصّمم فُقْدانُ حاسّة السّمْع، وبه يُوصفُ منْ لا يُصْغي إلى الحقّ

والمعنى في الآية: هؤلاء الكفار صُمٌّ سَدُّوا أسماعهم عن الحق.

5) ﴿بُكْمٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (بكم)، وأَصْلُ المادّة يَدُلّ على الخَرَسِ[7]،

كُلُّ أبْكَم أخْرس، وليس كُلُّ أخْرس أبْكم

(1) الرّاغب، المفردات: (ندا).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 40/58.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صمم).
(5) الرّاغب، المفردات: (صمم)
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صمم)
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَكَمَ)

قال ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ﴾، جَمْعُ أَبْكَمَ، وهُوَ الّذي يُولَدُ أَخْرَسَ، فَكُلُّ أَبْكَمَ أَخْرَسُ، ولَيْسَ كُلُّ أَخْرَسَ أَبْكَمَ[1]، ويقال: "رَجُلٌ أبكَمُ، مِن قَومٍ بُكْمٍ، والْأُنْثَى بَكماءُ، وقَالَ قومٌ: لَا يُسَمّى أبكَمَ حَتَّى يجْتَمع فِيهِ الخَرَس والبَلَهُ، وقد قَالُواْ: بَكيمٌ في معنى أَبْكَمَ، وجَمْعُوهُ: أَبْكَامًا، وهُوَ أَحَدُ مَا جَاءَ على فَعِيلٍ فَجُمِعَ على أَفعَالٍ، وهِي قَليلَة"[2].

الأبكم من لا يعي شيئًا ولا يفهمُهُ، وهو من لا يستطيعُ كلامًا

وقال ابن الأنباري: فيه قولانِ: أحَدُهما: أن يَكونَ الأَبْكَمُ: المَسْلوبَ الفُؤادِ، الّذي لا يَعي شيئًا ولا يَفْهَمُهُ، والقولُ الآخَرُ: أن يَكونَ الأَبْكَمُ: الأخْرسَ، يُقالُ: قد بَكِمَ الرَّجُلُ يَبْكَمُ بَكَماً ...، قال اللّهُ ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾، فَسَّرَ المُفسِّرونَ البُكْمَ بالخُرْسِ، ويقال أيضًا: البُكْمُ: المَسْلوبُ الأَفْئِدَةِ[3]، وفي قَوْلِ الرّسولِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ العُراةَ الحُفَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ»[4]؛ المُرَادُ بِالبُكْمِ هُنَا: رَعاعُ النَّاسِ وجَهَلَتُهُمْ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾، أَيْ لَمّا لَم يَنْتَفِعوا بِجَوارِحِهِم هَذِه فِيمَا خلقهَا اللّهُ لَهُ، كَأَنَّهُمْ عَدِموها، وقَالَ الطَّحّاوِيّ: صُمٌّ بُكْمٌ عَنِ الْخَيْرِ، وقيلَ صُمٌّ بُكْمٌ لِشُغْلِهِم بِلَذّاتِهِم، ومَا تقدّمَ أَوْلى؛ لِأَنّ الحَدِيث لَا يدلّ أَنَّهَا صِفَتُهُمْ بَعد مُلْكِهم، بلْ صِفَتُهُمُ اللَّازِمَةُ لَهُم[5].

والمعنى في الآية: هؤلاء الكفار بُكْم أخرسوا ألسنتهم عن النُّطق بالحقِّ.

العمى حقيقيٌّ ومجازيٌّ، والحقيقيّ أهونُ من المجازيّ

6) ﴿عُمۡيٞ﴾: من الجذرِ (عمى، عمي)، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ على سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ، والعَمَى: ذَهَابُ البَصَرِ مِنَ العَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِمَا[6]، ويُقالُ

(1) الرّاغب، المفردات: (بَكَمَ)
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بَكَمَ).
(3) الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات الناس: 1/277.
(4) ابن منده، الإيمان، حديث رقم: (154).
(5) عِيَاض اليحصبيّ، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/88.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمى).

في افْتِقادِ البَصَرِ والبَصيرَةِ، وجَمْع أَعْمَى: عُمْيٌ وعُمْيانٌ، قال تعالى: ﴿بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 171][1]، والْفِعْلُ مِنْهُ: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ورُبَّمَا قَالُوا: اعْمَايَّ يَعْمَايُّ اعْمِيّاءً، مِثْلَ ادْهَامَّ، أَخْرَجُوهُ عَلَى لَفْظِ الصَّحِيحِ.

وَرَجُلٌ عَم: إِذَا كَانَ أَعْمَى الْقَلْبِ، وقَوْمٌ عَمُونَ، ويَقُولُونَ في هَذَا المعْنَى: مَا أَعْمَاهُ! ولَا يَقُولُونَ في عَمَى الْبَصَرِ: مَا أَعْمَاهُ! لِأَنَّ ذَلِكَ نَعْتٌ ظَاهِرٌ يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ، ويَقُولُونَ فِيمَا خَفِيَ مِنَ النُّعُوتِ: مَا أَفْعَلَهُ! قَالَ الْخَلِيلُ: لِأَنَّهُ قَبِيحٌ أَنْ تَقُولَ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ: مَا أَعْمَاهُ! والْمُخَاطَبُ قَدْ شَارَكَكَ في مَعْرِفَةِ عَمَاهُ[2]، والعَمَى: ضِدُّ البَصَرِ، والعَمى نَوعانِ: حَقِيقِيٌّ ومَجازِيٌّ، وهو ما عَبَّرَ عنهُ تَعالى بِقَولِه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرعد: 46]، وعَمَى الأَبْصارِ أَهْوَنُ مِنْ عَمى البَصائِرِ[3]، قال حَسّانُ بن ثابتٍ الأنصاريُّ لِبَني قُرَيْظَةَ:

هُمُ أُوتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ *** فَهُمْ عُمْيٌ عَنِ التَّوْرَاةِ بُورُ[4]

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَـثَـلُ تَـقْـلِـيـدِ الـكـافِـريـنَ آبـاءَهُـم، كَالبَهائِمِ الّتي يَنعِقُ عَلَيْهَا الرَّاعي، وهِي لا تَعقِل شَيْئًا

يُخْبِرُ اللَّهُ تعالى أَنَّ صِفَةَ الّذينَ كَفَرُوا ومَنْ يَدْعُوهُمْ إلى الهُدَى والإيمَانِ، كَصِفَةِ الرَّاعِي الّذي يَصِيحُ مُنَادِيًا على بَهَائِمِه، فَتَسْمَعُ صَوْتَهُ، ولَا تَفْهَمُ قَوْلَهُ؛ فَهُمْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، بُكْمٌ قَدْ خَرِسَتْ أَلسِنَتُهُمْ عَنِ النُّطْقِ بِالحَقِّ، عُمْيٌ عَنْ إِبْصَارِهِ، ولِهَذا لا يَعْقِلُونَ الهُدَى الّذي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، ولَا يَرَوْنَ بَرَاهِينَهُ البَاهِرَة، فَهُمْ لا يُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ فِيمَا يَنْفَعُهُمْ[5].

التَّقْلِيدُ بِغَيْرِ عَـقْـلٍ شَـأْنُ الـكـافِـريـنَ، والتَّدَبُّرُ بِوَعْيٍ دَيدَنُ المُؤْمِنِينَ

وَالآيَةُ صَرِيحَةٌ في أَنَّ التَّقْلِيدَ بِغَيْرِ عَقْلٍ ولَا هِدَايَةٍ، هُوَ شَأْنُ الكَافِرِينَ، وأَنَّ المرْءَ لا يكون مُؤْمِنًا إلّا إذا عَقَلَ دِينَهُ وعَرَفَهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى اقْتَنَعَ بِهِ، فَمَنْ رُبِّيَ على التَّسْلِيمِ بِغَيْرِ عَقْلٍ، والعَمَلِ -وَلَوْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(3) الزّمخشري، أساس البلاغة: (عمي).
(4) ديوان حسّان بن ثابت، ص: 253، ومعاني القرآن: 3/66.
(5) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26.

صَالِحًا- بِغَيْرِ فِقْهٍ، فَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، لِأَنَّهُ لَيْسَ القَصْدُ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُذَلَّلَ الإِنْسَانُ لِلْخَيْرِ كَمَا يُذَلَّلُ الحَيَوَانُ، بَلِ القَصْدُ مِنْهُ أَنْ يَرْتَقِيَ عَقْلُهُ، وتَتَزَكَّى نَفْسُهُ، بِالعِلْمِ بِاللهِ والعِرْفَانِ في دِينِهِ[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلَالَةُ العَطْفِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾:

إقامةُ الصِّفةِ باستقلالٍ دلاليٍّ

الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، "ابْتِدَائِيَّةٌ وارِدَةٌ لِتَقْرِيرِ مَا قَبْلَهَا بِطَرِيقِ التَّصْوِيرِ"[2]، وقد جاءت هنا معطوفةً بالواوِ ولم تُفصل "كَمَا فَصَلَ قَوْلَهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ هُنَا جَعْلُ هَذِهِ صِفَةً مُسْتَقِلَّةً لَهُمْ، في تَلَقِّي دَعْوَةِ الإِسْلَامِ، ولَوْ لَمْ يَعْطِفْهُ لَمَا صَحَّ ذَلِكَ"[3].

تَمْثيلُ فَظَاعَةِ حَالِ (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)، إِمْعانًا في البَيانِ، واسْتِحْضارًا لَهُمْ بِالمِثالِ

آثَرَ النَّظمُ أُسْلُوبَ التَّمْثِيلِ؛ لِبَيَانِ ضَلَالِ مَنْ يَتَّبِعُ آبَاءَهُ السَّابِقِينَ، ويُعْرِضُ عَنِ الدِّينِ القَوِيمِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَصْوِيرٍ لِفِعْلِهِمُ المَذْمُومِ، وهُوَ إِنْ "عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، عَلَى سَبِيلِ البَيَانِ، فَيَكُونُ المُرَادُ بِالَّذِينَ كَفَرُواْ إِيَّاهُمْ، وضْعًا لِلمُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ، لِلإِشْعَارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِدَاءِ، وسَلْبِ العُقُولِ، نَعْيًا عَلَى المُخَاطَبِ، وتَسْجِيلًا عَلَى ضَلَالِهِمْ، وفي عَطْفِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ على الفِعْلِيَّةِ، إِيذَانٌ بِأَنَّ المضارعَ في قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، المُرَادُ بِهِ الاسْتِمْرَارُ[4].

وضعُ الظَّاهر - الاسمِ المَوْصولِ - موضع الضّمير:

إيرادُ المُشابَهَةِ؛ لِلإِشْعَارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِدَاءِ، وسَلْبِ العُقُولِ

أفادَ التَّعبيرُ بِالاسْمِ المَوْصُولِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إِظْهَارَ الفِعْلِ المَذْمُومِ وهو الكفرُ، المعبّرِ عَنْهُ في صِلَةِ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/111.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361

المَوْصُول؛ لِذَلِكَ آثَرَهُ على التَّعبير بالضَّمير، فَلَمْ يَقُلْ: (وَمَثَلُهُمْ)؛ "وَضْعًا لِلْمُظْهَرِ مَوْضِعَ المضْمَرِ، لِلْإِشْعَارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِدَاءِ، وسَلْبِ العُقُولِ، نَعْيًا على المخَاطَبِ وتَسْجِيلًا على ضَلَالِهِمْ"[1]، "وَوَضَعَ المَوْصُولَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ الرَّاجِعِ إلى مَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ الضَّمَائِرُ السَّابِقَةُ؛ لِذَمِّهِمْ بِمَا في حَيِّزِ الصِّلَةِ؛ ولِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ مَا أَثْبَتَ لَهُمْ مِنَ الحُكْمِ، والتَّقْدِيرُ: مَثَلُ ذَلِكَ القَائِلِ"[2].

حَذْفُ المضَافِ لِلتَّلَطُّفِ بِخِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ:

الإِيجَازُ بِالحَذْفِ يَتَمَاشَى مَعَ أَدَبِ الخِطَابِ المُهَذَّبِ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يجبُ تقدير مُضاف مَحذوفٍ، "تقديرُهُ: (ومَثَلُ دَاعِي الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ)"[3]، وهذا المَحذوفُ مِنَ الإيجَاز بالحَذْف؛ ولَمْ يُصَرِّحْ بالدَّاعِي - وهُوَ الرَّسُولُ - للعلم به، وتَمَشِّيًا مَعَ الأَدَبِ الرَّفِيعِ في حُسْنِ التَّلَطُّفِ بالخِطَابِ، والتَّهْذِيبِ الّذي يَجِبُ أَنْ يَتَّسِمَ بِهِ الشُّعَرَاءُ والكُتَّابُ[4].

دَلالَةُ التَّشْبِيهِ في قولِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

التَّمْثِيلُ لِإِهَانَةِ المُعْرِضِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تعالى واحْتِقَارِهِمْ

فَائِدَةُ التَّمْثِيلِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، إِهَانَةُ المُعْرِضِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعالى واحْتِقَارُهُمْ؛ لِأَنَّهُ مَثَّلَهُمْ بِالأَنْعَامِ في انْتِفَاءِ قُدْرَتِهَا على فَهْمِ المنْطُوقِ، ومَآلُهُ بَيَانُ قِلَّةِ العَقْلِ والفَهْمِ، وذكرُوا أَنَّهُ تَشْبِيهُ مُرْسَلٌ ومُجْمَلٌ؛ مُرْسَلٌ لِذِكْرِ الأداةِ، ومُجْمَلٌ لِحَذْفِ وجْهِ الشَّبَهِ، "لَكَ أَنْ تَجْعَلَ هَذا التَّشْبِيهَ مِنَ المُرَكَّبِ، وأَنْ تَجْعَلَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ المُفَرَّقِ، فإِنْ جَعَلْتَهُ مِنَ المُرَكَّبِ، كانَ تَشْبِيهًا لِلْكُفَّارِ في عَدَمِ فِقْهِهِمْ وانتفاعِهِمْ بِالغَنَمِ الّتِي يَنْعِقُ بِها الرّاعِي، فلا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا، غَيرَ الصَّوتِ المُجَرَّدِ الّذي هُوَ الدُّعاءُ والنِّداءُ، وإن جَعَلْتَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ المُفَرَّقِ،

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/240.

فالّذين كَفروا بِمَنْزِلَةِ البَهائِمِ، ودُعاءُ داعِيهِمْ إلى الطَّريقِ والهُدى، بَمَنْزِلَةِ الّذي يَنْعِقُ بها، ودُعاؤُهُمْ إلى الهُدى بِمَنْزِلَةِ النَّعْقِ، وإدراكُهُمْ مُجَرّدَ الدّعاءِ والنِّداءِ، كإدْراكِ البَهائِمِ مُجَرّدَ صَوْتِ النّاعِقِ"[1].

الأوْجُهُ الأرْبَعَةُ لِاخْتِلافِ المُفَسّرينَ في قَولِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

وتَفصيلُ ما سَلَفَ، أنَّهُمُ اخْتَلَفوا في هَذِهِ الآيَةِ اخْتِلافًا كَثيرًا، واضْطَرَبُوا فيها اضْطِرابًا شَديدًا، ولَا سَبيلَ إلى مَعْرِفَةِ الإعْرابِ، إلّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ المعْنَى، وقَدِ اخْتَلَفُوا في ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قال: مَعْنَاهَا أنَّ المثَلَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الكَافِرِ بِالنَّاعِقِ، ومِنْهُمْ مَنْ قال: هُوَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الكَافِرِ بِالمَنْعُوقِ بِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ قال: هُوَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الدَّاعِي والكَافِرِ بِالنَّاعِقِ والمَنْعُوقِ بِهِ[2]، وخُلَاصَةُ ذَلِكَ أنَّهُمْ ذَكَرُوا في بَيَانِ مَعْنَى التَّشْبِيهِ أرْبَعَةَ وُجُوهٍ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: تَشْبِيهُ الكَافِرِ بَالمَنْعُوقِ بِهِ:

انْهِمَاكُ الكَفَرَةِ في التَّقْلِيدِ جَعَلَهُمْ كالبَهَائِمِ؛ تَسْمَعُ الصَّوْتَ ولَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ

قال الفرّاءُ: "أضَافَ المثَلَ إلى الّذينَ كَفَرُوا، ثُمَّ شَبّهَهُمْ بالرَّاعِي، ولَمْ يَقُلْ: كَالغَنَمِ، والمعْنَى - واللَّهُ أعْلَمُ -: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ البَهَائِمِ التي لا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي أكْثَرَ مِنَ الصَّوْتِ، فَلَو قال لَهَا: ارْعَيْ أوِ اشْرَبِي، لَمْ تَدْرِ مَا يَقُولُ لَهَا، فَكَذَلِكَ مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا فِيمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ القُرْآنِ، وإنْذارِ الرَّسُولِ، فَأُضِيفَ التَّشْبِيهُ إلى الرَّاعِي، والمعْنَى -واللَّهُ أعْلَمُ- في المرْعِيِّ، وهُوَ ظَاهِرٌ في كَلَامِ العَرَبِ أنْ يَقُولُوا: فُلَانٌ يَخَافُكَ كَخَوْفِ الأسَدِ، والمعْنَى: كَخَوْفِهِ الأسَدَ؛ لِأنَّ الأسَدَ هُوَ المَعْرُوفُ بِأنَّهُ المَخُوفُ"[3].

فَهُوَ تَشْبِيهٌ مُرْسَلٌ ومُجْمَلٌ[4]؛ "شَبَّهَ الكُفَّارَ بِالبَهَائِمِ الّتي تَسْمَعُ صَوْتَ المُنَادِي دُونَ أنْ تَفْقَهَ كَلَامَهُ وتَعْرِفَ مُرَادَهُ"[5]، وقال الوَاحِدِيُّ: "مَعْنَى الآيَةِ: ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في قِلَّةِ عَقْلِهِمْ وفَهْمِهِمْ عَنِ اللَّهِ ﷻ،

(1) محمّد علي الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/390 391-.

(2) السّمين، الدُّرُّ المَصونُ: 2/229.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/99- 100.

(4) التَّشْبِيهُ المرْسَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي ذُكِرَتْ فِيهِ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ، والتَّشْبِيهُ المُجْمَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ وجْهُ الشَّبَهِ، ينظر: عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيّة: 2/173.

(5) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/103.

وعَنْ رَسُولِهِ، كَمَثَلِ المنْعُوقِ بِهِ مِنَ البَهَائِمِ الّتي لا تَفْقَهُ مِنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ غَيْرَ الصَّوْتِ، فَيكونُ المَعْنَى لِلْمَنْعُوقِ بِهِ، والكَلَامُ خَارِجٌ على النَّاعِقِ، وهُوَ جَائِزٌ عِنْدَ العَرَبِ، يَقْلِبُونَ الكَلَامَ لاتِّضَاحِ المعْنَى عِنْدَهُمْ، فَيَقُولُونَ: اعْرِضِ الحَوْضَ على النَّاقَةِ، وإنّمَا هُوَ: اعْرِضِ النَّاقَةَ على الحَوْضِ، وعلى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: 76]، المَعْنى: أنَّ العُصْبَةَ تَنُوءُ بِالمَفَاتِحِ"[1].

اعـــتراضُ ابـنِ قتيبة على قولِ الفرّاء

وَاعْتَرَضَ ابْنُ قُتَيْبَةَ على هَذا القَوْلِ بِأَنْ قال: "وكان بَعْضُ أَصْحَابِ اللُّغَةِ يَذْهَبُ في قَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ إلى مِثْلِ هَذا في القَلْبِ، ويَقُولُ: وقَعَ التَّشْبِيهُ بِالرَّاعِي في ظَاهِرِ الكَلَامِ، والمعْنَى لِلْمَنْعُوقِ بِهِ وهُوَ الغَنَمُ، وكَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: 76] أَيْ: تَنْهَضُ بها وهِيَ مُثْقَلَةٌ"[2]، ثُمَّ قال: "وَهَذا مَا لا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ على كِتَابِ اللَّهِ ﷻ لَوْ لَمْ يَجِدْ لَهُ مَذْهَبًا؛ لِأَنَّ الشُّعَرَاءَ تَقْلِبُ اللَّفْظَ، وتُزِيلُ الكَلَامَ على الغَلَطِ، أَوْ على طَرِيقِ الضَّرُورَةِ لِلْقَافِيَةِ، أَوْ لِاسْتِقَامَةِ وزْنِ البَيْتِ"[3]، "وَاللَّهُ تعالى لا يَغْلَطُ ولَا يُضْطَرُّ، وإنّمَا أَرَادَ: ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا ومَثَلُنَا في وعْظِهِمْ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِمَا لا يَسْمَعُ، فَاقْتَصَرَ على قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وحَذَفَ (ومَثَلُنا)؛ لِأَنَّ الكَلَامَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، ومِثْلُ هَذا كَثِيرٌ في الاخْتِصَارِ"[4].

انتصارُ الواحديِّ لقولِ الفرّاء

وَصَحَّحَ الوَاحِدِيُّ قَوْلَ الفَرّاءِ، وردّ على إِنْكَارِ ابْنِ قُتَيْبَةَ قائِلًا: "وَقَوْلُ الفَرّاءِ صَحِيحٌ وإِنْ أَنْكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، مُوَافِقٌ لِمَذاهِبِ العَرَبِ في فُنُونِ مُخَاطَبَاتِهَا؛ فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ الشَّيْءَ لِلضَّرُورَةِ، ثُمَّ يَصِيرُ وجْهًا

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/491-492.
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 126.
(3) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 126.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 3/129.

ومَذْهَبًا لَهُمْ في الكَلَام، حَتَّى يُجِيزُوهُ وإنْ لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ، وعلى هَذا الطَّرِيقِ أَرَادَ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: البَهَائِمَ الّتِي لا تَعْقِلُ ولَا تَفْهَمُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي، إنّما تَسْمَعُ صَوْتًا ولَا تَدْرِي مَا تَحْتَهُ، لَوْ قال لَهَا: كُلِي واشْرَبِي لَم تَقِفْ على مَعْنَى قَوْلِهِ، فَالّذينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ، وهُمْ كَالغَنَم؛ إِذْ كَانُوا لا يَسْتَعْمِلُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، ولَا يَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ"[1]، "وَالمَعْنَى أَنَّ الكَفَرَةَ لانْهِمَاكِهِمْ في التَّقْلِيدِ لا يُلْقُونَ أَذْهَانَهُمْ إلى مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ، ولَا يَتَأَمَّلُونَ فِيمَا يُقَرَّرُ مَعَهُمْ، فَهُم في ذَلِكَ كَالبَهَائِمِ التِي يُنْعَقُ عَلَيْهَا فَتَسْمَعُ الصَّوْتَ، ولَا تَعْرِفُ مَغْزَاهُ، وتُحِسُّ بِالنِّدَاءِ ولَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ"[2].

الوَجْهُ الثَّاني: تَشْبِيهُ دَاعِي الكَفَرَةِ بِرَاعِي الغَنَمِ:

الدَّاعِي كَالرَّاعِي يَدْعُو البَهَائِمَ، ولَا تَفْقَهُ مِنْ صَوْتِهِ إلّا الصَّوْتَ

قال الفَرّاءُ: "وَفِيهَا مَعْنًى آخَرُ: تُضِيفُ المثَلَ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وإضَافَتُهُ في المعْنَى إلى الوَعْظِ، كَقَوْلِكَ: مَثَلُ وعْظِ الّذينَ كَفَرُوا ووَاعِظِهِمْ كَمَثَلِ النَّاعِقِ"[3]، فَيَكونُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ المَفْرُوقِ[4]، حَيثُ "شَبَّهَ دَاعِيَ الكَافِرِ بِالنَّاعِقِ، ونَفْسَ الكَفَرَةِ بِالبَهَائِمِ المنْعُوقِ بها، ودُعَاءَ دَاعِي الكَفَرَةِ بِنَعِيقِ النَّاعِقِ بِالبَهَائِمِ، والمعْنَى: مَثَلُكَ يَا مُحَمَّدُ، ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا، في وعْظِهِمْ ودُعَائِهِمْ إلى اللَّهِ وعَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ، كَمَثَلِ الرَّاعِي الّذي يَصِيحُ بِالغَنَمِ ويُكَلِّمُهَا ويَقُولُ: كُلِي واشْرَبِي وارْعَيْ، وهِيَ لا تَفْهَمُ"[5].

فـنُّ الاحتبـاكِ في التَّشبيـه التَّمثيليّ

وقال السَّمينُ الحلبيُّ مُرَجِّحًا هذا الوَجْهَ: "فَمَعْنَى الآيَةِ: أَنَّ مَثَلَ دَاعِي الكَفَرَةِ، كَمَثَلِ الرَّاعِي النَّاعِقِ بِالغَنَمِ، والغَنَمِ المنْعُوقِ بها، في

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 33/493.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 31/119.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 31/100.
(4) التَّشْبِيهُ المفْرُوقُ: مَا يَتَعَدَّدُ طَرَفَاهُ، ويُجْمَعُ كُلُّ طَرَفٍ مَعَ صَاحِبِهِ، بِأَنْ يُجْمَعَ كُلُّ مُشَبَّهٍ مَعَ مُشَبَّهٍ بِهِ، ينظر: حسن إسماعيل، البلاغة الصَّافِيَة في المعاني والبيان والبديع، ص: 295، وهُوَ مِنْ أَقْسَامِ التَّشْبِيهِ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الطَّرَفَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا، وهُوَ: مَا أُتِيَ فيهِ بِمُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ ثُمَّ بِمُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ، وهَكَذَا، يُنْظَر: عصام الدّين الحنفيّ، الأطول شَرْح تَلخيص مِفْتاحِ العُلومِ: 31/80.
(5) البروسويّ، روح البيان: 1/274.

أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لِلْكَفَرَةِ مِنَ الدُّعَاءِ الهَدْيُ الأَمْثَلُ مَا يَحْصُلُ لِلْغَنَمِ مِنْ صَوْتِ النَّاعِقِ بها، وهُوَ سَمَاعُ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ؛ ولِذَلِكَ قال: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، فَذَكَرَ في أَوَّلِ الآيَةِ المَدْعُوَّ، وحَذَفَ الدَّاعِيَ، وفي آخِرِهَا ذَكَرَ الدَّاعِيَ وحَذَفَ المدْعُوَّ، فَحَذَفَ مِنَ الأَوَّلِ لِدَلَالَةِ الثَّانِي عَلَيْهِ، ومِنَ الثَّانِي لِدَلَالَةِ الأَوَّلِ عَلَيْهِ، وفي الآيَةِ أَقْوَالٌ هَذا أَبْيَنُهَا"[1].

وَقال الوَاحِدِيُّ مُبَيِّنًا قَوْلَ الفرَّاءِ: "تَقْدِيرُ الآيَةِ: ومَثَلُكَ يَا مُحَمَّدُ، ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في وعْظِهِمْ ودُعَائِهِمْ إلى اللَّهِ ﷻ؛ فَحَذَفَ أَحَدَ المثَلَيْنِ اكْتِفَاءً بِالثَّانِي، كَقَوْلِهِ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النّحل: 81]، وعلى هَذا التَّقْدِيرِ: شَبَّهَ الكُفَّارَ بِالبَهَائِمِ، وشَبَّهَ دَاعِيَهُمْ بِالّذي يَصِيح بها وهِيَ لا تَعْقِلُ شَيْئًا"[2].

الوَجْهُ الثَّالِثُ: إِجْرَاؤُهُ على ظَاهِرِهِ:

الجاحدونَ لا يَفْقَهونَ، مِثْلَ البَهائِمِ التّي لا تَفهَمُ

ومن المفسِّرين من يَجْعَلُ الآيَةَ بِلَا إِضْمَارٍ، قال الوَاحِدِيُّ: "مَعْنَاهَا: ومَثَلُ الكُفَّارِ في قِلَّةِ فَهْمِهِمْ وعَقْلِهِمْ، كَمَثَلِ الرُّعَاةِ يُكَلِّمُونَ البُهْمَ، والبُهْمُ لا تَعْقِلُ عَنْهُمْ، وعلى هَذا التَّفْسِيرِ لا تَحْتَاجُ الآيَةُ إلى إِضْمَارٍ"[3]، وقد فصّل فيه الرّازيّ فقالَ: "إِجْرَاؤُهَا على ظَاهِرِهَا مِنْ غَيْرِ إِضْمَارٍ، وفِيهِ وجْهَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقُولَ: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في قِلَّةِ عَقْلِهِمْ في عِبَادَتِهِمْ لِهَذِهِ الأَوْثَانِ، كَمَثَلِ الرَّاعِي إِذا تَكَلَّمَ مَعَ البَهَائِمِ، فَكَمَا أَنَّهُ يُقْضَى على ذَلِكَ الرَّاعِي بِقِلَّةِ العقْلِ، فكَذا هاهُنا، الثَّاني: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في اتِّبَاعِهِمْ آبَاءَهُمْ وتَقْلِيدِهِمْ لَهُمْ، كَمَثَلِ الرَّاعِي إِذا تَكَلَّمَ مَعَ البَهَائِمِ، فَكَمَا أَنَّ الكَلَامَ مَعَ البَهَائِمِ عَبَثٌ عَدِيمُ الفَائِدَةِ، فَكَذا التَّقْلِيدُ عَبَثٌ عَدِيمُ الفَائِدَةِ"[4].

وَمِنْهُ أَنْ يُجْعَلَ تَشْبِيهًا بِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ: "فَتَضَمَّنَ هَذا المثَلُ نَاعِقًا، أَيْ مُصَوِّتًا بِالغَنَمِ وغَيْرِهَا، ومَنْعُوقًا بِهِ، وهُوَ الدَّوَابُّ، فَقِيلَ:

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: 4/196، والدُّرُّ المصون: 2/229.
(2) الواحدي، البسيط: 3/491- 492.
(3) الواحديّ، البسيط: 3/493.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

النَّاعِقُ: العَابِدُ، وهُوَ الدَّاعِي لِلصَّنَم، والصَّنَمُ هُوَ المَنْعُوقُ بِهِ المَدْعُوُّ، وإنَّ حَالَ الكَافِرِ في دُعَائِهِ كَحَالِ مَنْ يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُهُ"[1].

وَضَعَّفَ البَيْضَاوِيُّ هَذا الوَجْهَ؛ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ سَمَاعًا بِالاسْتِثْنَاءِ، ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ "لأَنَّ الأَصْنَامَ لا تَسْمَعُ، إلّا أَنْ يُجعَلَ ذلكَ مِنْ بابِ التَّمْثِيلِ المُرَكَّبِ"[2]، "وَقِيلَ: تَمْثِيلُهُمْ في دُعَائِهِمُ الأَصْنَامَ بِالنَّاعِقِ في نَعْقِهِ، وهُوَ تَصْوِيتُهُ على البَهَائِمِ، وهَذا غَنِيٌّ عَنْ الإِضْمَارِ، لَكِنْ لا يُسَاعِدُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ فَإِنَّ الأَصْنَامَ بِمَعْزِلٍ مِنْ ذَلِكَ"[3].

الوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ تَشْبِيهٌ مُرَكَّبٌ:

الكُفَّارُ في عَدَمِ الِانْتِفَاعِ، كَالغَنَمِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ غَيْرَ الصَّوْتِ المُجَرَّدِ

فَإِنْ جَعَلْتَ التَّمثيلَ مِنَ المُرَكَّبِ كان تَشْبِيهًا لِلْكُفَّارِ في عَدَمِ فِقْهِهِمْ وانْتِفَاعِهِمْ، بِالغَنَمِ التي يَنْعِقُ بها الرَّاعِي فَلَا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا غَيْرَ الصَّوْتِ المُجَرَّدِ الَّذي هُوَ الدُّعَاءُ والنِّدَاءُ"[4]، "وَمَثَلُهُمْ في دُعَائِهِمُ الأَصْنَامَ فِيمَا لا جَدْوَى فِيهِ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِمَا لا يَسْمَعُ، إلّا دُعَاءً ونِدَاءً"[5].

بيانُ حَذْفِ المُضافِ في: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾:

مَثَلُ الكافِرِينَ كَالبَهَائِمِ الَّتي يُنْعَقُ بِها، فلا تَسْمَعُ إلّا جَرْسًا ودَوِيًّا

إذا كانَ المشَبَّهُ بِهِ هُوَ البَهَائِمَ، فَالتَّقْدِيرُ: كَمَثَلِ بَهَائِمِ الّذي يَنْعِقُ بها، و"إنّما حُذِفَ المضَافُ مِنَ الموْصُولِ الثَّاني لِدَلَالَةِ كَلِمَةِ (مَا) عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْهُ، مُشْعِرَةٌ -مَعَ مَا في حَيِّزِ الصِّلَةِ- بِمَا هُوَ مَدَارُ التَّمْثِيلِ، أَيْ مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا فِيمَا ذُكِرَ مِنَ انْهِمَاكِهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وعَدَمِ التَّدَبُّرِ فِيمَا أُلقِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الآيَاتِ، كَمَثَلِ بَهَائِمِ الّذي يَنْعِقُ بها، وهِيَ لا تَسْمَعُ مِنْهُ إلّا جَرْسَ النَّغْمَةِ، ودَوِيَّ الصَّوْتِ"[6]، فلا بُدَّ مِنْ مُضافٍ مَحْذوفٍ، تَقديرُهُ: (ومَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا كبَهَائِمِ الَّذي يَنْعِقُ)"[7].

(1) ابن القيّم، أمثال القرآن: 2/45.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(4) ابن القيّم، أمثال القرآن: 2/46.
(5) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.

تَوَهُّمُ زِيَادَةِ (إِلَّا)، بِاعْتِبارِ الخلطِ بين المنفيَّات:

فَـرْقٌ بـينَ نَـفْـيِ السَّماعِ، ونَفْيِ فَهْمِ المَسْموعِ

الاستثناءُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، "مُفَرَّغٌ؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ فِعْلٌ مَبْنِيٌّ مُتَعَدٍّ لَمْ يَأْخُذْ مَفْعُولَهُ، وذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلى أَنَّهُ لَيْسَ اسْتِثْنَاءً مُفَرَّغًا، وأنّ ﴿إِلَّا﴾ زَائِدَةٌ، والدُّعَاءُ والنِّدَاءُ مَنْفِيٌّ سَمَاعُهُمَا، والتَّقْدِيرُ: بِمَا لا يَسْمَعُ دُعَاءً ولَا نِدَاءً، وهَذا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ القَوْلَ بِزِيَادَةِ (إِلَّا) قَوْلٌ بِلَا دَلِيلٍ"[1].

وجعل ابْنُ عَرَفَةَ سببَ القولِ بزيادةِ ﴿إِلَّا﴾ تَوَهُّمَ التَّنَاقُضِ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، يَلْزَمُ عنه أَنْ يكونَ الدُّعَاءُ والنِّدَاءُ مَسْمُوعَيْنِ لَهُ، وقَوْلُهُ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ يَدُلُّ على أَنَّهُ لا يَسْمَعُ شَيْئًا بِوَجْهٍ من الوجوه[2]، فَادِّعَاء الزِّيَادَةِ سببُهُ الوَهْمُ في فَهْمِ الآيَةِ؛ فَالآيَةُ لا تَتناولُ نَفْيَ السَّمْعِ، ولَكِنْ نَفْيَ فَهْمِ المَسْمُوعِ.

حالُ مَنْ لا يَنْتَفِعُ بِحَاسَّتِهِ، كَحَالِ فَاقِدِهَا:

في السِّيَاقِ إِيجَازٌ مُـفـادُهُ عَـدَمُ إِدْراكِ المَعاني والأَغْرَاضِ

"فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، لَيْسَ المَسْمُوعُ إلّا الدُّعَاءَ والنِّدَاءَ، فَكَيْفَ ذَمَّهُمْ بِأَنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ إلّا الدُّعَاءَ؟ وكَأَنَّهُ قِيلَ: لا يَسْمَعُونَ إلّا المَسْمُوعَ، وهَذا لا يَجُوزُ؛ فَالجَوَابُ: أَنَّ في الكلام إيجازًا، وإنّمَا المعْنَى: لا يَفْهَمُونَ مَعَانِيَ مَا يُقَالُ لَهُمْ، كَمَا لا تُمَيِّزُ البَهَائِمُ بَيْنَ مَعَانِي الألفَاظِ الَّتِي لا تُصَوِّتُ بها، وإنّمَا تَفْهَمُ شَيْئًا يَسِيرًا، وقَدْ أَدْرَكَتْهُ بِطُولِ المُمَارَسَةِ وكَثْرَةِ المعَاوَدَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ لَهُمْ إلّا سَمَاعُ النِّدَاءِ دُونَ إِدْرَاكِ المعَانِي والأَغْرَاضِ"[3].

قال الرّازيّ: "قَوْلُهُ تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، فَاعْلَمْ أَنَّهُ تعالى لَمَّا شَبَّهَهُمْ بِالبَهَائِمِ، زَادَ في تَبْكِيتِهِمْ، فَقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾؛ لِأَنَّهُمْ صَارُوا بِمَنْزِلَةِ الصُّمِّ في أَنَّ الذي سَمِعُوهُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/504-505.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ في قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾:

تَـقْـرِيـرُ عَـدَمِ انْـتِـفَـاعِ الـكَـافِـرِ بِـشَـيْءٍ مِـن وُجُـوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ

جُمِعَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ "لِأَنَّ الدُّعَاءَ طَلَبُ الفِعْلِ، والنِّدَاءَ إِجَابَةُ الصَّوْتِ"[1]، قال ابْنُ عَرَفَة: "وَعَادَتُهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، بِأَنَّ الدُّعَاءَ يكونُ بِلَفْظِ الطَّلَبِ، وسَوَاءٌ كانَ مَعَهُ نِدَاءٌ أَوْ لَمْ يُكنْ، والدُّعَاءُ أَخَفُّ مِنَ النِّدَاءِ؛ لِأَنَّ البَهَائِمَ تُنَادِيهَا فَلَا تُجِيبُ، فَإِذا دَعَوْتَهَا وزَجَرْتَهَا أَتَتْ، فَالنِّدَاءُ لِلْخَوَاصِّ، والدُّعَاءُ لِلْعَوامِّ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ قَدْ يَسْتَجِيبُ لِلدُّعَاءِ، ومَنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ الدُّعَاءُ فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والغَبَاوَةِ"[2]، ومَآلُهُ التَّمْثِيلُ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بشيء من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ.

مَـجْـمُـوعُ الـمُـتَـرادِفَـيْنِ، يَحْصُلُ به مَعْنًى لَا يُـوجَـدُ عِـنْـدَ انْفِرادِهِما

جاء في (الكُلّيّات)، أنّ التّرادُفَ هُو: "الاتِّحَادُ في المَفْهُوم، لَا الاتِّحَادُ في الذَّاتِ، كالإنْسانِ والبَشَرِ، وحقُّ المُترادِفَيْنِ صِحّةُ حُلُولِ كُلٍّ مِنْهُمَا مَحلَّ الآخَرِ؛ هَذَا مُخْتَارُ ابْنِ الْحَاجِبِ في (أُصُولِهِ)، وهُوَ أَنّهُ يَجِبُ ذَلِك مُطلقًا، ومختارُ الْبَيْضَاوِيّ: إن كَانَا من لُغَةٍ واحِدَةٍ، ومُخْتارُ الإمَام: أَنّه غَيرُ واجِبٍ.

والمترادِفانِ يُفيدانِ فَائِدَةً واحِدَةً مِنْ غَيرِ تَفاوُتٍ، والتَّابِعُ لَا يُفيدُ وحدَهُ شَيْئًا، بَل بِشَرْطِ كَونِه مُقَيَّدًا بِتَقدُّمِ الأَوّلِ عَلَيْهِ، قَالَه فَخرُ الدّين.

والمترادفانِ مِثلُ: ﴿بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ [يوسف: 86]، ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [التوبة: 78]، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ [المدثر: 28]، ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: 67]، ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157]، ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: 6].

والمَخْلَصُ في هَذَا أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ مَجْمُوعَ المُتَرادِفَيْنِ يُحَصِّلُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/504.

مَعنًى لَا يُوجَدُ عِنْد انفرادِهما؛ فَإِنّ التَّرْكِيبَ يُحدِثُ مَعنًى زَائِدًا، وإذا كَانَتْ كَثْرَةُ الْحُرُوفِ تُفِيدُ زِيَادَةَ المَعْنى فَكَذَلِك كَثْرَةُ الْأَلْفَاظِ"[1].

دَلالَةُ الاحْتِباكِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

حَـذْفُ ما يُثْبَتُ نَظيرُهُ في الكَلامِ، مِن بَديعِ كَلامِ العَرَبِ

والأرجَحُ في الآيَةِ أنّها مِنَ الاحْتِباكِ[2]، وهُوَ حَذْفُ جُزْءٍ مِن كُلِّ طَرَفٍ أُثْبِتَ نَظيرُه في الآخَرِ، والتَّقْديرُ: (ومَثَلُ الّذينَ كَفَروا مَعَكَ يا مُحَمَّدُ، كَمَثَلِ النّاعِقِ مع الغَنَم)، وهَذا هُو الّذي اخْتارَهُ الكِرْمانيُّ شَيْخُ الزَّمخشَريّ، وقال: إنَّهُ أبْلَغُ ما يَكونُ مِنَ الكَلام، وقَدْ نَصّ عَليه سِيبوَيْهِ، وقَرَّرَهُ ابنُ طاهِرٍ والشَّلَوْبينُ، وابنُ خَروفٍ، وقالوا: إنَّهُ مِن بَديعِ كَلامِ العَرَبِ[3].

وقال الرُّعينيُّ الغرناطيُّ في شرحِ البديعيّة في عِلم البلاغَة والمَعاني: "ومِن أنْواعِ البَديعِ الاحْتِباكُ، وهُوَ نَوْعٌ عَزيزٌ، وهُوَ أنْ يُحْذَف مِنَ الأوّلِ ما أُثْبِتَ نَظيرُه في الثّاني، ومن الثّاني ما أُثْبِتَ نَظيرُهُ في الأوّل، كَقَوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾، والتّقْديرُ: (ومَثَلُ الأنبياءِ والكُفّارِ، كَمَثَلِ الّذي يَنْعِقُ، والّذي يُنْعَقُ بِهِ)، فحُذِفَ منَ الأوّل (الأنْبياءُ) لِدلالَة ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ عليه، ومِن الثّاني (الّذي يُنْعَقُ به)؛ لدلالة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه"[4].

دَلالَةُ الاسْتِئْنافِ في قَوْلِهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

الأَلْفاظُ الثّلاثةُ (صمّ بكم عمي) أَخْبارٌ لِمُبْتَدآتٍ مَحْذوفَةٍ مُقَدَّرَةٍ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، "رَفْعٌ؛ وهُوَ وجْهُ الكَلام؛ لِأَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ خَبَرٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا تَقُولُ في الكَلام: هُوَ أَصَمُّ فَلَا يَسْمَعُ، وهُوَ أَخْرَسُ فَلَا يَتَكَلَّمُ"[5]، قال الطَّبَريُّ: "وَأَمَّا الرَّفْعُ في قَوْلِهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فَإِنَّهُ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ

(1) الكَفَويّ، الكليّات، ص: 315.
(2) السّيوطيّ: نواهد الأبكار: 2/360.
(3) السّيوطيّ: نواهد الأبكار: 2/360.
(4) التّهانوي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/107.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/100.

الابْتِدَاءِ والاسْتِئْنَاف، يَدُلُّ على ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا يُقَالُ في الكَلَام: هُوَ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ، وهُوَ أَبْكَمُ لا يَتَكَلَّمُ، فتَقْديرُ (هُمْ) يَدُلّ عَليه الضَّميرُ (هُمْ)، في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾"[1].

﴿صُمٌّ﴾ ومَا عُطِفَ عَلَيْه: خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، فهُمْ ﴿صُمٌّ﴾ لا يَسْمَعُونَ المَوَاعِظَ، ولَا يَنْزَجِرُونَ بها، وهُمْ ﴿بُكْمٌ﴾ لا يَنْطِقُونَ بِالحَقِّ، وهُمْ ﴿عُمْيٌ﴾ لا يَنْظُرُونَ الهُدَى، ولَا يَتَّبِعُونَهُ، وإِنْ كَانَتْ صُورَةُ الحَوَاسِّ مَوْجُودَةً[2].

الاسْتِعارَةُ التَّصْرِيحِيَّةُ والتَّشْبِيهُ البَلِيغُ في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾:

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ إمَّا على التَّشبيه البليغ، أو الاستعارة التَّصريحيّة، فمَعْنَى التَّشْبِيهِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أَيْ: "حَالُهُمْ حَالُ الأَصَمِّ الأَبْكَمِ الأَعْمَى؛ إِذْ لا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ فِيمَا يُدْعَونَ إِلَيْهِ"[3].

فـقـدُ الـبـصـائـرِ أشـدُّ وقـعًـا من فقدِ الحواسِّ

وقد حُذِفَتْ أداةُ الشَّبَهِ ووَجْهُ الشَّبَهِ في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾: "فهُوَ تَشْبيهٌ بَليغٌ[4]، أيْ: هُمْ كالصُّمِّ في عَدَمِ سَمَاعِ الحَقِّ، وكالعُمْيِ وكالبُكْم، في عَدَمِ الانْتفاعِ بِنُورِ القُرآن"[5]، "أَيْ: أَنَّهُمْ في عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لِلْحَقِّ الّذي دُعُوا إِلَيْهِ، كَالصُّمِّ الّذينَ لا يَسْمَعُونَ، وهُوَ تَشْبِيهُ حَالِهِمُ المعْنَوِيَّةِ في عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لِدَعْوَةِ الحَقِّ إِذا نَادَى المنَادِي بِهِ، بِحَالِ الأَصَمِّ الّذي لا يَسْمَعُ شَيْئًا، وفي عَدَمِ نُطْقِهِمْ بِالحَقِّ واسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ، بِحَالِ الأَبْكَمِ الّذي لا يَتَكَلَّمُ، شَبَّهَ عَدَمَ إِدْرَاكِهِمُ الحَقَّ الّذي بَدَتْ مَعَالِمُهُ وظَهَرَ نُورُهُ، بِحَالِ الأَعْمَى الّذي لا يُبْصِرُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]"[6]، وقَدْ شَبَّهَ مَن لا يُصْغِي إلى الحَقّ بِذَلِكَ التَّوْصِيفِ الشَّنِيعِ، والقَوْمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/316.

(2) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/546.

(4) التَّشْبِيهُ البَلِيغُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي لَمْ تُذْكَرْ فِيهِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ، ولَمْ يُذْكَرْ فِيهِ أَيْضًا وجْهُ الشَّبَهِ، ينظر: عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيّة: 2/173.

(5) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/103.

(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/505.

كانوا يَسْمَعون ويَنْطِقون ويُبْصِرونَ، لَكِنَّهُم لـمّا عَزَفوا عَن القُرْآنِ، فلَمْ يَسْمَعوهُ ولم يَقْرَؤوهُ، ولم يَنْظُروا في دَلالاتِهِ، جُعِلوا كَذلِكَ، ولَيْتَهُمْ كانوا فاقِدينَ لِهَذِهِ الحَواسِّ خاصَّةً، إنّما المُصيبَةُ في فُقْدانِ البصائِرِ[1].

وظيفةُ الاستعارةِ المبالغةُ في بيانِ المعنى تحذيرًا وتنبيهًا

وَيجُوز أن يَكونَ اسْتِعارةً تَصْريحيَّةً: "في تَشْبِيهِ الكَافِرينَ بِالصُّمِّ والبُكْمِ والعُمْيِ، وحَذْفِ المُشَبَّهِ وإبْقَاءِ المشَبَّهِ بِهِ"[2]؛ فَجَعَلَهُمْ صُمًّا على وجْهِ الاسْتِعَارَةِ؛ مُبَالَغَةً في بَيَانِ ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾؛ "لِأَنَّهُ أَشَدُّ بَلَاءً مِمَّا بَعْدَهُ؛ لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِهِ السَّمْعُ والعَقْلُ، أَلا تَرَى إلى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾ [يونس: 42] فَذَكَرَ ذَهَابَ السَّمْعِ مَعَ الصُّمِّ، وذَكَرَ بَعْدَهُ ذَهَابَ البَصَرِ مَعَ العُمْيِ لا غَيْرُ"[3].

دَلالَةُ الفاء في قَوْلِه: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

فقدُ الأدواتِ والوسائلِ يقطعُ الإنسانَ عن بلوغِ الغايات

لَمّا شَبّه الحقُّ الكافرين "بِفَاقِدِي هَذِهِ القُوَى الثَّلَاثِ التِّي يُتَوَسَّلُ بها إلى تَمْيِيزِ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ، واخْتِيَارِ الحَقِّ، فَرَّعَ على هَذا التَّشْبِيهِ قَوْلَهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، أَيْ لا يَكْتَسِبُونَ الحَقَّ بِمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ العَقْلِ الغَرِيزِيِّ؛ لِأَنّ اكْتِسَابَهُ إنّما يَكونُ بِالنَّظَرِ والاسْتِدْلَالِ، ومَنْ كان كَالأَصَمِّ والأَعْمَى في عَدَمِ اسْتِمَاعِ الدَّلَائِلِ ومُشَاهَدَتِهَا، كَيْفَ يَسْتَدِلُّ على الحَقِّ ويَعْقِلُهُ! ولِهَذا قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدْ فَقَدَ عِلْمًا"[4]؛ فَنَفْيُ هَذِهِ الحَوَاسِّ سَبَبٌ في انْتِفَاءِ العَقْلِ؛ فلذا عقَّبَ عَلَيْهَا بالفَاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لِأَنَّ طَرِيقَ التَّعَقُّلِ هُوَ التَّدَبُّرُ في مَبَادِئِ الأُمُورِ المعْقُولَةِ، والتَّأَمُّلُ في تَرْتِيبِها، وذَلِكَ إنّما يَحْصُلُ بِاسْتِمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ، ومُشَاهَدَةِ حُجَجِهِ الوَاضِحَةِ، والمُفَاوَضَةِ مَعَ مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ العُلُومُ، فَإِذا كَانُوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا، فَقَدِ انْسَدَّ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ التَّعَقُّلِ، وطُرُقُ الفَهْمِ بِالكُلِّيَّةِ"[5].

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: 2/354.
(2) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/341.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/546.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.

دلالةُ نفي العقل في قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

نفيُ العقلِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، فِيهِ نَفْيُ الانتفاعِ بالعَقْلِ عَنْهُمْ، "وَلَيْسَ المرَادُ نَفْيَ أَصْلِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ نَفْيَهُ رَأْسًا لا يَصْلُحُ طَرِيقًا لِلذَّمِّ"[1]، فالمنفيُّ "العقلُ التَّكْليفيّ النَّافِع"[2]، أو "العَقْلُ الاكْتِسَابِيُّ؛ لِأَنَّ العَقْلَ المطْبُوعَ كان حَاصِلًا لَهُمْ، والعَقْلُ عَقْلَانِ: مَطْبُوعٌ، ومَكْسُوبٌ، ولَمَّا كان الطَّرِيقُ لِاكْتِسَابِ العَقْلِ المكْتَسَبِ هُوَ الاسْتِعَانَةَ بِهَذِهِ القُوَى الثَّلَاثِ، كان إِعْرَاضُهُمْ عَنْهَا فَقْدًا لِلْعَقْلِ المكْتَسَبِ، ولِهَذا قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدْ فَقَدَ عَقْلًا"[3].

المرادُ نَفْيُ الانتِفاعِ بالعَقْلِ، ولَيْسَ نَفْيَ أَصْلِ العَقْلِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

بَيَّنَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا في التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ بقوله: "وَالدُّعَاءُ كَالنِّدَاءِ إلّا أَنَّ النِّدَاءَ قَدْ يُقَالُ إذا قِيلَ: (يَا، وأَيا)، وإنْ لَمْ يُضَمَّ مَعَهُ اسْمٌ، والدُّعَاءُ لا يَكَادُ يُقَالُ إلّا ومَعَهُ اسْمُ المدْعُوِّ، نَحْوُ: يَا فُلَانُ، وقَدْ يَقَعُ كُلٌّ مِنْهُمَا مَوْقِعَ الآخَرِ"[4].

تَعاقُبُ الدُّعاءِ والنِّداءِ؛ لِلتَّمْثيلِ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ مِنْ وُجُوهِ الخِطَابِ

وقال ابْنُ عَرَفَةَ: "وَعَادَتُهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، بِأَنَّ الدُّعَاءَ يَكونُ بِلَفْظِ الطَّلَبِ، وسَوَاءٌ كان مَعَهُ نِدَاءٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ، والدُّعَاءُ أَخَفُّ مِنَ النِّدَاءِ؛ لِأَنَّ البَهَائِمَ تُنَادِيهَا فَلَا تُجِيبُ، فَإِذا دَعَوْتَهَا وزَجَرْتَهَا أَتَتْ، فَالنِّدَاءُ لِلْخَوَاصِّ، والدُّعَاءُ لِلْعَوَامِّ، فَمَنْ لَم يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ قَدْ يَسْتَجِيبُ لِلدُّعَاءِ، ومَنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ الدُّعَاءُ، فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والغَبَاوَةِ"[5]، "وَالنِّدَاءُ مَا يُسْمَعُ، والدُّعَاءُ قَدْ يُسْمَعُ، وقَدْ لا يُسْمَعُ"[6]، ونَقَلَ أَبُو حَيَّانَ بَعْضَ تَخْصِيصَاتِ النِّدَاءِ، فَهُوَ "مُخْتَصٌّ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/505.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (دعو).
(5) تفسير ابن عرفة: 2/504.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/151.

بالجَهْرِ، وقِيلَ: بالبُعْدِ، وقِيلَ: بِغَيْرِ المعَيَّنِ"[1]، و"إنّما ثَنَّى ﴿إِلَّا دُعَآءَ وَنِدَآءً﴾؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ طَلَبُ الفِعْلِ، والنِّدَاءَ إِجَابَةُ الصَّوْتِ"[2].

والخُلاصَةُ: أنّ الدُّعَاءَ فِيهِ طَلَبٌ وتَخْصِيصٌ بِاسْمٍ أَوْ شَيْءٍ، أَمَّا النِّدَاءُ فَرَفْعُ الصَّوْتِ لِلتَّنْبِيهِ والإِجَابَةِ، وأَمَّا التَّفْرِيقُ في الاسْتِعْمَالِ، فَإِنَّهُمَا قَدْ جَاءَا مُتَعَاقِبَيْنِ مَعًا في آيَةٍ واحِدَةٍ؛ لِيَشْمَل جَمِيعَ وُجُوهِ الخِطَابِ الّتِي يُوَجِّهُهَا الرَّاعِي إلى غَنَمِهِ، ومَآلُهُ التَّمْثِيلُ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بأيّ وجه من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.
(2) المصدر السّابق: 2/108.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»